تمهيد

مجتمعات العرب فى الجاهلية

وتفاوتها فى الحضارة

١

موطن العرب ، فى جاهليتهم ، يمتد فى رقعة من الأرض واسعة[١] ، ذات بقاع متباينة ، تختلف بيئاتها الطبيعية اختلافاً يكاد يجعل منها مواطن متعددة وإن كانت ، مع ذلك ، وطناً واحداً متماسكاً . فما بين البحر الهندى فى أقصى الجنوب إلى ما بعد دمشق فى أقصى الشمال ، وما بين بحر فارس ونهرَىْ دجلة والفرات فى الشرق إلى البحر الأحمر بل إلى نهر النيل فى الغرب[٢] — كانت تسيح

---

(١) « ليس فى خريطة الأرض شبه جزيرة تضاهيها حجماً ، فهى أكبر من شبه جزيرة الهند ، ومساحتها ثمانية أضعاف الجزر البريطانية ، وأربعة أضعاف فرنسا . . . » تاريخ العرب (مطول) لحتى وجرجى وجبور ١ : ١٥ . « وهى تعادل ربع أوربا أو ثلث الولايات المتحدة مساحة . . . » المرجع السابق ص : ١ .

(٢) تحديد البلاد التى سكنها العرب ليس بالأمر اليسير المتفق عليه ، وإنما يحتاج إلى تحديد المراد بلفظ العرب أولا وإلى تحديد الزمان الذى تدور فيه أحداث البحث ثانياً :

(ا) كان الفراعنة والآشوريون والفينيقيون يقصدون بالعرب أهل البادية فى البقعة الممتدة بين الفرات فى الشرق والنيل فى الغرب ، ويدخلون فيها — عدا بادية العراق والشام وشبه جزيرة سيناء — صحراء مصر الشرقية ما بين وادى النيل والبحر الأحمر . وقد كانت بلاد العرب فى عصر جيولوجى مبكر متصلة فى جنوبها عند اليمن بإفريقية عدا اتصالها بها فى شمالها ، فكان البحر الأحمر آنذاك بحيرة داخلية ، (انظر : De Lacy O'Leary, Arabia Before Mohammad, 1927, p. 11) وكان بذلك نهر النيل هو الحد الغربى لبلاد العرب .

(ب) وكان اليونان القدماء يعدون جنوبى جزيرة العرب بين خليج فارس والبحر الأحمر من الحبشة ، فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس إقليما واحداً يسمونه « إثيوبيا آسيا » . ثم أطلق اليونان فى عهد البطالسة على الجزيرة كلها اسم بلاد العرب ، وقسموها ثلاثة أقسام : البادية =

هذه الأمة العريقة : فى الأغوار والأنجاد ، وفى السهول وفوق قُنَن الجبال ، وفى أجواف الصحارى وعلى سواحل البحار . وكان لا بد لهذه الرقعة المترامية الأطراف ، المتباعدة الأقطار ، من أن يختلف مناخها كما اختلفت طبيعة أرضها : ففيها شُواظٌ من لهيب الحرّ يشوى الوجوه ، وسَمُوم تُلَوِّح الأبدان ؛ وفيها ثلوج تكلل الجبال ، وصقيع يجمّد الدم فى أطراف الأحياء ويقفّع الجلود[1] ؛ وفيها ما بين

= Arabia Deserta ، والحجرية Arabia Petra ، والسعيدة Arabia Felix .

(ح) وأما جغرافيو العرب فهم يقصدون ببلاد العرب الجزيرة العربية كلها ، ويدخلون فيها بادية سيناء وبلاد الشام جميعها وجزءاً من العراق ؛ فيحددها الهمدانى بقوله : « جنوبيها اليمن ، وشماليها الشام ، وغربيها شرم أيلة وما طردته من السواحل إلى القلزم وفسطاط مصر ، وشرقيها عمان إلى البحرين وكاظمة والبصرة ، ووسطها الحجاز وأرض نجد والعروض . وتسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربى فى كلها شائع وإن تفاضل . . . » (صفة جزيرة العرب ص : ١) . ويفصل ياقوت القول عند كلامه على تحديدها تفصيلا نذكر مبتدأه ومنتهاه قال : « قد اختلف فى تحديدها ، وأحسن ما قيل فيها ما ذكره أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب مسنداً إلى ابن عباس ، قال : اقتسمت العرب جزيرتها على خمسة أقسام ؛ قال : وإنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها ، فصاروا منها فى مثل الجزيرة من جزائر البحر . وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع فى البحر فى ناحية البصرة والأبلة . . . ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها ، وأقبل النيل فى غربى هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضاً البحر معه حتى دفع فى بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق » (معجم البلدان — جزيرة العرب) .

وبلاد العرب فى هذا البحث هى الجزيرة العربية التى يحدها من الغرب البحر الأحمر ، ومن الجنوب البحر العربى ، ومن الشرق خليج فارس ، وتمتد فى الشمال حتى تشمل هذه البقاع التى قامت فيها دولات عربية كالمناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام ومن قبلهم الأنباط فى بترا وتدمر .

(١) يبلغ ارتفاع أعالى الجبال فى اليمن أكثر من اثنى عشر ألف قدم ، ونحو عشرة آلاف قدم فى كل من مدين وجبال السراة فى الحجاز والجبل الأخضر فى عمان . بل إن فى نجد — وهى هضبة متوسط ارتفاعها ٢٥٠٠ قدم — جبلا يبلغ ارتفاعه ٥٥٥٠ قدماً وهو جبل أجأ (انظر تاريخ العرب — مطول — ١ : ١٦) . وقد ذكر عرام بن الأصبغ السلمى فى كتابه « أسماء جبال تهامة وسكانها » بعض هذه الجبال الشاهقة ، وأشار إلى ارتفاعها وذهابها فى السماء ، من ذلك قوله عن جبل ورقان : « جبل أسود عظيم كأعظم ما يكون من الجبال » (ص : ١٥) وقال عن جبل آرة « جبل من أشمخ ما يكون » (ص : ١٩) . وقال عن جبل شمنصير : « جبل ملمع لم يعله أحد قط ولا درى ما على ذروته » (ص : ٢٦) . وقال عن جبل يسوم وقرقد « لا يكاد أحد يرتقيهما إلا بعد جهد » (ص : ٤١) =

هذا وذاك مناخ معتدل فيه دفء لا يغلو فيصبح حرًّا، ولا يقصر فيصبح بردًا .. وفيها مع ذلك أمطار غزار تنساب أنهاراً وجداول[1]، تقوم على حِفافَيْها مدن

= وقد كان الماء يجمد على بعض قمم الجبال وذلك مثل جبل صنعاء وجبل غزوان بجوار الطائف (انظر الهمدانى : الإكليل ص : ٩ ، والإصطخرى : مسالك الممالك ص: ١٩). « ومكثوا سنة جرداء، وسموها سنة الجمود لجمود الرياح فيها » (الهمدانى : صفة جزيرة العرب ص : ٢١٤) . وكانت الثلوج تسقط على جبل حضور الشيخ فى اليمن فى شتاء كل عام تقريباً ، وأما الصقيع فهو أكثر من ذلك شيوعاً (انظر تاريخ العرب – مطول ١ : ٢١) .

(١) كانت الأمطار فى جزيرة العرب فى العصر الجاهلى غزيرة غزارة لا تعرفها الجزيرة الآن، ولغزارة الأمطار فى الجاهلية آيات : أولاها – وهى أهمها فى نظرنا – ما يحفل به الشعر الجاهلى من وصف السيول الدافقة ، وذلك أكثر من أن يشار إليه . وثانيتها : كثرة الأودية ومسايل المياه التى تشاهد فى الجزيرة – ليومنا هذا – غائرة غائصة . وقد عقد الهمدانى فصلا عن أودية السراة ومسايل المياه فيها فى صفة جزيرة العرب (من ص: ٧١ إلى ٧٨) حيث يفصل القول فيها تفصيلا ويعد منها شيئاً كثيراً ، وانظر كذلك ص : ٢١٤ وما بعدها . وثالثة هذه الآيات ما يذهب إليه بعض العلماء فى قولهم : « وكانت الرياح الغربية التى تروى غيومها الآن مرتفعات سورية وفلسطين تصل فى الأزمنة الغابرة إلى الجزيرة قبل أن تفقد هذه الغيوم رطوبتها » (تاريخ العرب – مطول – ١ : ١٥) . والعلماء هؤلاء يشيرون إلى أن ذلك كان فى عصور جيولوجية سحيقة فى القدم – ولكن ما ذكرناه من أمر الشعر الجاهلى دال على أن ذلك كان مألوفاً فى العصر الجاهلى الأخير . ومما يؤيد ذلك أن ديودوروس الصقلى – فى القرن الأول قبل الميلاد– يذكر أن بلاد العرب التى تقع فى الشمال من العربية السعيدة وتمتد حتى تجاور سورية « يتخللها كثير من الأنهار ويهطل عليها مطر غزير فى الصيف فيكون لسكانها بذلك موسمان زراعيان فى السنة الواحدة» (انظر : Diodorus Siculus, London, Book 2, p. 54)

وقد ذكر عرام السلمى أسماء كثير من القرى الزراعية وأنواع فواكهها وثمارها وأشار إلى كثرة مائها ، من ذلك قوله عن جبلى رضوى وعزور: « فى الجبلين جميعاً مياه أوشال، والوشل : ماء يخرج من شاهقة لا يطورها أحد ولا يعرف منفجرها . . ويصب الجبلان فى وادى غيقة ، وغيقة تصب فى البحر ، ولها مسك : وهى مواضع تمسك الماء ، واحدها مساك » (ص : ٦) ويذكر « ينبع » فيقول : « قرية كبيرة غناء . . . فيها عيون عذاب غزيرة الماء ووادياها يليل يصب فى غيقة . . . وفى يليل هذه عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماء . . . » (ص : ٨ – ٩) ويذكر « الصفراء » فيقول : « قرية كثيرة النخل والمزارع ومائها عيون كلها ، وهى فوق ينبع مما يلى المدينة ، ومائها يجرى إلى ينبع » (ص : ٨) ويذكر قرية السوارقية وفواكهها فيقول : « قرية غناء كثيرة الأهل . . ولهم مزارع ونخيل كثيرة وفواكه وموز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ . . » (ص : ٦٥) .

وهو يذكر كثرة المطر فيقول : « وغدير خم هذا . . لا يفارقه ماء أبداً من ماء المطر » (ص : ٣٣) ويذكر الآبار التى فى بعض الجبال فيقول عن مائها إنه « ماء سماء لا تنقطع هذه المياه لكثرة ما يجتمع فيها » (ص : ٥٤) . =

وقرى ، وتهتز الأرض فتخرج من ثمرها وبقلها وفاكهتها ما شاء لها الله ؛ ويكون من كل ذلك تلك الحضارة الزراعية التى عرفها التاريخ فى العرب والأمم الأخرى ذات طابع واضح ومعالم مميزة . وقد تضنّ لطبيعة بمائها فلا تكاد ترسله إلا بمقدار ، ثم تمسك إمساك الشحيح يندم على ما بسط من يده ؛ فيكون من هذا الرذاذ الهيّن الليّن سُهوب ومراع ينتجعها قُطّان الصحارى بأنعامهم يلتمسون الكلأ ، ثم لا تكاد تطمئن بهم النوى حتى تقتلعهم اقتلاعاً ، وتقذفهم إلى مرعى جديد يكون أوفر حظّاً وأوفى نصيباً. فتنشأ من ذلك طبقة اجتماعية عرفها التاريخ كذلك فى سيره الطويل بطابعها الواضح ومعالمها المميزة .

وهذه الصحراء العربية يضيق جوفها عن أن يمد لقُطّانها من أسباب العيش غيرَ ما كان يعيش عليه رجل الغابة الأول : يتنكّب قوسه ويعلّق كنانته ، أو يحمل رمحه ويتقلّد سيفه ، ثم يضرب فى الأرض باحثاً عن قُوته بين حيوان الصحراء . وقد يؤوب بصيد سمين وقد يكون هو الصيد ، أو قد يفوته ما أمّل ، فلا يجد له بُدّاً من أن يجعل هدفه أخاً له يفتك به ويجرّده مما يحوز . فتكون من ذلك طبقة اجتماعية ثالثة هى أولى الجماعات التى عرفها التاريخ منذ أن وُجد الإنسان .

ولقد كانت هذه البلاد فى مكان سُوّى بين أمم العالم ، يتوسط الشرق والغرب ، ويصل الجنوب بالشمال ، فلا بدّ إذن من أن تكون طريقاً تجتازه التجارة من الشرق والجنوب إلى الشمال والغرب . وكان لا بد أن يكون لهذه التجارة قوّامون يبذلون من مالهم ومن جهدهم فى شرائها ونقلها وحراستها ثم بيعها ما يضطرهم إلى تنظيم أمرها وتهيئة وسائلها ، فنشأت من ذلك تجارتان : تجارة داخلية محلية ،

= بل إن هذه الأمطار ما زالت إلى يومنا هذا تهطل على الصحارى نفسها – بله السهول والجبال – كصحارى النفود والربع الخالى حتى إنها لتغطيها «ببساط من الخضرة يحولها إلى جنة للإبل والأغنام» ، «وتغنى الأرض بالمراعى» (انظر تاريخ العرب – مطول – ١ : ١٧) وانظر كذلك ص : ٢٠ – ٢١ ففيهما وصف للخصب والخضرة فى هضبة نجد وفى الحجاز وعسير واليمن فى أيامنا هذه .

وتجارة خارجية عالمية . وكان لا مفرّ من أن تقوم طبقة اجتماعية رابعة بجانب الطبقات الثلاث المتقدمة .

وكانت ثَمَّة حِرَفٌ صغيرة ، وصناعات كثيرة ، تتناول من الأمور دقيقَها وجليلَها ، وكانت بعض المدن تختصّ بضرب من هذه الصناعات دون غيره ، فتشتهر به ، ويؤمها الناس يتعلمون هذه الصناعة من أهلها ، ثم يعودون إلى موطنهم بطريف لم يكونوا يعهدونه[1] . وكان لا بدّ من أن يقوم على هذه الحرف والصناعات رجال مختصون : من العرب الخُلَّص ، ومن الرقيق المجتلب ، فكانت منهم جميعاً طبقة اجتماعية خامسة ، ذات طور حضاريّ يختلف عن الطبقات السابقة .

ولعل آخر هذه الطبقات هؤلاء السادة المترفون من الملوك والأمراء والحكام والأثرياء ممّن كان يجتمع لهم السلطان والمال .

٢

والقبيلة عند العرب فى حاجة إلى دراسة مستفيضة خاصة ، لا يتسع لها مثل هذا العرض التمهيدى ، وبحسبنا أن نشير إلى أن الشائع المتعارف أن القبيلة كانت فى الجاهلية جماعات من الأعراب البداويين : يسكنون الخيام ويقطنون الصحراء ، لا همّ لهم إلا الغزو وانتجاع الكلأ . وقد يَصْدُق ذلك على بعض تلك القبائل ، أو على أقسام منها . غير أن الذى لا يتطرق إليه ريب ، فيما نرى ، أن قبائل كثيرة كان منها من يسكن فى الحواضر والقرى مستقرًّا ثابتاً : فالأوس والخزرج

---

(١) من أمثلة ذلك ذهاب عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة من الطائف إلى جرش فى اليمن ليتعلما بعض الصناعات الحربية . قال ابن إسحق : « ولما قدم فل ثقيف الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها — وصنعوا الصنائع للقتال . ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ولا غيلان بن سلمة ، كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور » (السيرة ٤ : ١٢١)

كانتا تسكنان المدينة ، وثقيف كانت تسكن الطائف ، وقريش البِطاح كانت تسكن بطحاء مكة ، وتغلب وبكر وإيّاد كان بعضها حاضرةٌ تسكن الجزيرة وما بين النهرين ، وعبد القيس كان منها حاضرةٌ تسكن عُمّان والبحرين ، وغيرها وغيرها من القبائل التي كانت تستوطن قرى اليمامة وقرى اليمن . فهذه وأشباهها من قبائل العرب كان أكثرها أهل مَدَر ، مستقرّةً في موطنها ، لا يُعْجِلها التنقّل والارتياد عن أن تقيم لنفسها من حولها حياة مدنية لا تختلف في شيء عما نعرفه من حياة سكان المدن في بلاد العرب لذلك العهد . وما أوضح ما رُوِي لنا عن أحد أحلاف الجاهلية من أن ذلك الحلف كان « في أهل الوَبَر في الجاهلية فلما جاء الإسلام — وكانت حَنِيفة بقيت من قبائل بَكْر لم تكن دخلت في الجاهلية في هذا الحلف — قال : وذلك أنهم أهل مَدَر — فدخلوا في الإسلام مع أخيهم عِجْل فصاروا لِهَزِمة »[1].

ونصٌّ آخر لا يقل وضوحاً وإبانة ، قالوا[2] : « قريشُ الأباطح أشرفُ وأكرمُ من قريش الظواهر ، لأن البطحاويين من قريش حاضرةٌ وهم قُطّان الحرم ، والظواهر أعراب بادية ، وضاحية كل بلد ناحيتها البارزة » .

فكثيراً ما نجد إذن قبيلة واحدة تحيا حياتين مختلفتين : كان قسم منها يتحضر ويستقرّ ويسكن المدر ، على حين يبقى قسم منها بادياً في أهل الوبر ، في أطراف القرى والمدن . وقد كان هذا شأن القبيلة في الجاهلية والإسلام معاً ؛ فمن ذلك : جُهَيْنَة ، كان قسم منها يسكن في الوبر دون المدر في نواحي جَبَلَيْ رَضْوَى وعَزْوَر[3] ، بينما يسكن قسم آخر منها في المدر في ينبع « وهي قرية كبيرة غنّاء . . . فيها عيون عِذاب غزيرة الماء . . »[4] ويسكن قسم ثالث منها في

---

(١) النقائض : ٧٢٨ .
(٢) اللسان (ضحا) .
(٣) عرام بن الأصبغ السلمي ، كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها ، ص : ٧ .
(٤) المصدر السابق : ٨ .

الصَّفْراء « قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها ، وهى فوق ينبع مما يلى المدينة ، وماؤها يجرى إلى ينبع »[١] .

ومثال آخر : نَهْد ، كانت كجُهَيْنة تسكن فى الوبر دون المدر فى جَبَلَىْ رَضْوَى وعَزْوَر[٢] ، وكان قسم منها يسكن فى قرية الصَّفْراء .

ومثل ثالث : مُزَيْنَة ، كان قسم منها يسكن فى جبل وَرْقان[٣] ، وقسم آخر فى جبلى القُدْسَيْن[٤] ، وقسم ثالث فى جبلى سَهْبَان[٤] ، بينما يسكن قسم منها فى قرية الفُرْع « وهى قرية غناء كبيرة »[٥] .

ومثل رابع : هُذَيْل ، كانت أقسام منها تسكن ضرعاء وهى « قرية بها قصور ومنبر وحصون »[٦] ، وقسم يسكن فى قريتى رُهاط والحديبية[٧] ، وقسم يسكن فى مَرِّ الظَّهْران وهى « قرية فى واديها عيون كثيرة ونخيل وجُمَّيز » ، إلى آخر ما شئت من الأمثلة .

وإذا كان يحلو لبعض الباحثين أن يجعلوا « لأهل الكتاب » فى الجاهلية سهماً فى الحضارة أوفر من سهام « الأمِّيِّين » — ولعلهم على شىء من الحق فى ذلك — فمن يكون أهل الكتاب أولئك ؟ وكيف يغرب عنا أن نصارى بلاد العرب ويهودَها لم يكونوا — ما عدا قلة قليلة من الوافدين — غير قبائل قد تنصرت وتهوَّدت — قبائل كاملة بِقَضِّها وقضيضها[٨] .

---

(١) حرام بن الأصبغ : ٨
(٢) المصدر السابق : ٧
(٣) المصدر السابق : ١٦
(٤) المصدر السابق : ١٨
(٥) المصدر السابق : ١٩
(٦) المصدر السابق : ٢٥ — ٢٦
(٧) المصدر السابق : ٢٧ — ٢٨
(٨) ابن حزم ، الجمهرة : ٤٥٧ — ٤٥٨ « فيقال إن إياداً كلها ، وربيعة كلها ، وبكر ، وتغلب ، والنمر ، وعبد القيس كلهم نصارى ، وكذلك غسان ، وبنو الحارث بن كعب بنجران ، وطيئ ، وتنوخ ، وكثير من كلب ، وكل من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم. =

ثم إن القبائل البادية نفسها التى لم تستوطن الحواضر والقرى ، ولم تتنصر أو تهوّد — هذه القبائل كانت تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى نظام حياتها ، وطرق معيشتها وطبقتها الاجتماعية ؛ وبحسبنا أن نشير إلى ما رُوِىَ عن عائشة ، قالت : لما قدمنا المدينة نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقبل هدية من أعرابى ، فجاءت أم سنبلة الأسلمية بلبن ، فدخلت به علينا فأبينا نقبله ؛ فنحن على ذلك إلى أن جاء رسول الله معه أبو بكر ، فقال : ما هذا ؟ فقلت : يا رسول الله هذه أم سنبلة أهدت لنا لبناً ، وكنت نهيتنا أن نقبل من أحد من الأعراب شيئاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذوها ، فإن أسْلَمَ ليسوا بأعراب هم أهْلُ باديتنا ، ونحن أهل قَارِيَتهم ، إذا دعوناهم أجابوا ، وإن استنصرناهم نصرونا[1] .

وثمة نَصَّان لا يقلاّن عن هذا النص وضوحاً وقيمةً : أولهما ما ذكره عَرّام ابن الأصبغ فى حديثه عن السُّوَارِقيَّة قال : « قرية غناء كثيرة الأهل » ثم قال : كان لبنى سُلَيم فيها « مزارع ونخيل كثيرة وفواكه من موز وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ . ولهم خيل وإبل وشاء كثير ، وهم بادية ، إلا من وُلِدَ بها فإنهم ثابتون بها ، والآخرون بادون حواليها ويميرون طريق الحجاز ونجد فى طريق الحاج »[2] .

وثانيهما ما ذكره عرّام أيضاً فى حديثه عن قرية خَيْف سَلاَّم قال : « .... وفيه منبر وناس كثير من خزاعة ، ومياهها فُقُرٌ أيضاً ، وباديتها قليلة ، وهى : جُشَم وخُزَاعة وهُذَيْل »[3] .

فنحن نفهم من هذه النصوص الثلاثة المتقدمة أن المقصود بالبادية إنما هو

= وكانت حمير يهوداً ، وكثير من كندة » . وذكر أبو عبيد (معجم ما استعجم ١ : ٢٩) أن قبيلة من بلى نزلت أرضاً بين تيماء والمدينة «فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم ، فتهودوا ، فأدخلوهم المدينة . . . »

(١) ابن سعد ، الطبقات ٨ : ٢١٥ ، والقارية : الحاضرة الجامعة .

(٢) كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها : ٦٥ .

(٣) المصدر السابق : ٣٥ ؛ والفقر : قنى الماء ، واحدها : فقير .

ظاهر القرية ، أو ضاحيتها وما أحاط بها ، وأن كثيراً من القبائل كانوا يقطنون فى هذه البوادى قريبين من الحواضر ، مُطيفين بها ، مُتَّصلين بسكَّانها ؛ فهم إذن غير تلك القبائل الموغلة فى الصحراء ، الضاربة فى الفيافى ، البعيدة عن العمران ، الذين قست قلوبهم وغلظت أكبادهم فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق ، هؤلاء هم الأعراب ؛ أما القبائل القريبة من القرى ، المطيفة بها « فليسوا بأعراب ، هم أهل باديتنا ونحن أهل قاريتهم » .

٣

ونحب أن نخلص من كل ما قدّمنا من أمر عرب الجاهلية وبلادهم إلى أنهم لم يكونوا مجتمعاً واحداً ، بل كانوا طبقات اجتماعية مختلفة متباينة تمثل المجتمعات الإنسانية التى مرت بها البشرية فى تاريخها الطويل .

وقد استبانت هذه الفروق الاجتماعية بين تلك المجتمعات منذ القدم لِمَن كتب عن العرب من مؤلفى اليونان والرومان. فهذا ديودوروس الصِّقلِّىّ — فى القرن الأول قبل الميلاد — يُفيض فى حديثه عن الحضارة الزاهية التى قامت فى بعض أنحاء الجزيرة العربية ، ويصوِّر لنا الحياة المترفة الراقية التى كان يحياها عرب اليمن ؛ ثم يتحدث عن الأجزاء الداخلية المتوسطة فى بلاد العرب فيقول: إنه « كان يقطنها جمهور كبير من العرب الرُّحَّل الذين اتخذوا لأنفسهم حياة الخيام، وكانت لهم قطعان كثيرة من الأنعام، وينصبون مضاربهم فى السهول الواسعة المنبسطة . . » ثم يقول : « إن الأجزاء الباقية من بلاد العرب المتاخمة للبحر والتى تقع إلى الشمال من العربية السعيدة وتمتد حتى تجاور سورية — يقطنها جمهور من المزارعين والتجار على اختلاف أنواعهم ، يبيعون ما عندهم ويبتاعون ما عند غيرهم فى مواسم وأسواق تجارية . . . وتتخلل هذه البلاد كثير من الأنهار ، ويهطل عليها مطر غزير فى

الصيف ، فيكون لهم بذلك موسمان زراعيان فى السنة الواحدة »[١] .

وقد لحظ بعض الذين كتبوا فى العصور الإسلامية عن العصر الجاهلى هذه الفروق فى المجتمعات الجاهلية — فهم يقسمون عرب الجاهلية قسمين رئيسيين : الملوك ، وغير الملوك . ثم يقسمون غير الملوك قسمين رئيسيين : أهل مَدَر وأهل وَبَر ، ويقسمون أهل المدر إلى زراع وتجار . قال ابن العبرى[٢] « وأما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين : أهل مدر وأهل وبر . فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى ، وكانوا يحاولون المعيشة من الزرع والنخل والماشية والضرب فى الأرض للتجارة . وأما أهل الوبر فهم قُطَّان الصحارى وكانوا يعيشون من ألبان الإبل ولحومها ، منتجعين منابت الكلأ ، مرتادين لمواقع القطر ، فيُخَيِّمُون هنالك ماساعدهم الخصب وأمكنهم الرعى ، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه ، فلا يزالون فى حلٍّ وترحال . . »

٤

ولذلك كان من الإخلال الفاضح بالمنهج السديد أن يُنْظَر إلى العصر الجاهلى نظرة واحدة ، وأن يُحكم عليه حكمٌ عامٌ مطلق ، وأن يُوصَمَ عرب الجاهلية جميعاً بالبداوة والجهالة ، فلا تُراعى هذه الفروق الواسعة فى البيئات الاجتماعية المتباينة . فإن صحَّ أن بعض الأعراب فى صحراوات الجزيرة كانوا فى معزل عن العالم المتمدين آنذاك ، فإنه من الصحيح كذلك أن بعض البيئات الاجتماعية الأخرى كانت متصلة بمعالم المدنية لذلك العهد ، مواكبةً لركب الحضارة .

والحضارة فى العصر الجاهلى موضوع يحتاج إلى شىء من البحث المتعمق

---

(١) Diodorus Siculus, London, William Heinemann Ltd. Cambridge, Book 2, p. 54

(٢) مختصر الدول — ط . بيروت ص ١٥٨ — ١٥٩ ، وكذلك صاعد الأندلسى ، طبقات الأمم ص ٦٥ — ٦٦ .

الدقيق ، ويستحق منا فى هذا المجال وقفة قصيرة نُلم به إلمامة سريعة .

وأول ما يلفت نظرنا من أمر هذه الحضارة الجاهلية الأخيرة أنها حضارة ظاهرية تأثرية (سلبية) ، لم تبلغ من العمق أولاً ومن القوة ثانياً ما يجعل لها طابعها الخاص الذى تتسم به ، وما يبعث فى حناياها الحياة القوية حتى تندفق على الحضارات الأخرى فتؤثر فيها أو تتفاعل معها . وتعليل ذلك أن هذه الحضارة فى الجاهلية الأخيرة إنما انحدرت من جدولين : أولهما تليد موروث ، وثانيهما طريف مقبوس .

أما الجدول الأول فهو صورٌ مطموسة ، وأطلال مدروسة ، وظلال باهتة ، كان يحس بها عرب هذا العصر إحساساً غائماً ، ويسمعون بها سماعاً غامضاً ، ويرون من آثارها ما لم يحسنوا الانتفاع به أو ما لم تطق حالتهم آنذاك أن تبعث فيه الحياة دافقة كما كانت . ومعالم تلك الحضارة التليدة قائمة فى بلاد العرب فى هذه النقوش والآثار التى اكتُشف بعضها فى اليمن حيث قامت دول مَعين وسبأ وحمير ، وفى الحِجْر حيث وجدت لحيان وثمود ، وفى بترا حيث قامت دولة الأنباط .

وقد أشار كثير من المعنيين بالدراسات الشرقية من الأوروبيين إلى هذه الحضارة العربية القديمة بعد استقراء النقوش واستنطاق الآثار . فقال ونكلر Winckler[1] إن تاريخ الجزيرة العربية كما توضحه النقوش يُظهر لنا مجموعة من الحكومات والدول المنظمة منذ أقدم القدم. وقال سايس A.H. Sayce « لم يكن المسلمون الذين انطلقوا من الجزيرة العربية وفتحوا العالم المسيحى وأسسوا الممالك إلا من نسل أولئك الذين كان لهم فى القدم أثر عميق فى مصير الشرق »[2] . وقال هومل Hommel : «إن الحضارة العربية الجنوبية بآلهتها ومذابحها ذات البخور ونقوشها وحصونها وقلاعها لا بد أن تكون مزدهرة متحضرة منذ الألف الأول قبل الميلاد . . » وقال : « إن أهمية العرب فى الشرق القديم تكمن فى مجال الحضارة

---

(١) Margoliouth, Relations Between Arabs and Israelites Prior to The Rise of Islam, 24.

(٢) A.H. Sayce, Early Israel, 128.

والدين ، ويكفى أن نذكر كلمتى : البخور وعبادة النجوم ، لندرك أثر العرب فى الأمم المجاورة لهم ولا سيما العبرانيين واليونان »[١] .

أما نحن فحسبنا هذه الاستشهادات ، ولن نعرض بالقول المفصل لهذه الدول ، فما زال الحديث عنها مبتوراً يحتاج إلى استكمال التنقيب والكشف فى مجاهل الصحراء وبطون الرمال . ولكننا نحب أن نشير إلى أن المستشرق أوليرى قد فصل القول ، فى فصول كتابه « بلاد العرب قبل محمد » ، عن علاقة الأمة العربية بغيرها من الأمم المجاورة لها منذ أقدم الأزمنة ، وكشف عن الروابط القوية التى كانت قائمة بين العرب وبين دول ما بين النهرين والمصريين والأحباش والهنود والفرس واليونان والرومان[٢] .

٥

فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى العصر الجاهلى الأخير وجدنا أن هذه الحضارات العربية جميعها قد انحطت وانقرضت منذ أزمان متفاوتة . ويذهب فريق من الباحثين إلى أن انحطاط هذه الدول العربية وانقراضها إنما يرجع إلى عوامل اقتصادية ؛ وهم يرون أن هذا الانحطاط قد بدأت بوادره منذ ابتداء التاريخ المسيحى ، واستمرت تقوى حتى قوضت أركان هذه الحضارات . وأهم الأسباب التى يوردها هذا الفريق لتعزيز رأيه : زوال المدن العظيمة فى سهول جزيرة الفرات بعد سقوط بابل وآشور ، وما لهذا الزوال من أثر فى الممالك العربية التى كانت منذ القدم السحيق تسيطر على الطرق التجارية . وتلا ذلك زوال الأسواق الفينيقية ؛ وأهم

---

(١) نقلا عن : Hommel : Farmer, History of Arabian Music, Introduction Ancient Hebrew Tradition, 77

(٢) وانظر أيضاً : الدكتور جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ٢ : ٢٧٧ — ٤٢٤ ؛ ٣ : ٢٧٤ — ٤٢٣ .

من ذلك كله فتح الرومان الطريق التجارى البحرى خلال البحر الأحمر فى نحو القرن الأول الميلادى . وكان من أثر هذا أن تضاءلت تجارة القوافل البرية فى الجنوب ، وكانت هذه التجارة عماد الممالك العربية الجنوبية . وزادت المشكلاتُ السياسيةُ هذه العواملَ قوةً : فنى الشمال قضى الرومان على بترا سنة ١٠٦م بقيادة تراجان ، ثم قضوا على تدمر سنة ٢٧٢ م بقيادة أورليان ، وقد كان الأنباط مستودع تجارة القوافل الشمالية . ولم تنتعش الممالك العربية بعد هذا الاضطراب السياسى والاقتصادى ، فانتشرت الهجرة وترك الناس المدن التى كانت عظيمة فزالت . ويعقب فارمر H.G. Farmer على هذا بقوله[1] : «ومع ذلك كله فإن الجزيرة العربية لم تُصَب بالعقم ، فمن هذه البلاد التى كانت مهد الساميين وُلدت الحضارة الإسلامية التى صارت بحق خير خلف لحضارة الساميين العظيمة فى القدم» .

* * *

ونحن نرى أن هذا العصر الجاهلى الأخير الذى توسط بين الحضارتين : العربية القديمة والإسلامية الناشئة ، لم يكن فجوة عميقة واسعة بحيث تقطع الأواصر بين الحضارتين . فقد كان العرب فى هذه الجاهلية الأخيرة يعرفون عن ماضيهم قبسات أوصلها إلينا المؤرخون الإسلاميون غائمة غامضة تشوبها الأساطير والخرافات .

وهذا القرآن الكريم فى خطابه لعرب الجاهلية الأخيرة حافل بالإشارات التى تدل على ما كان يرفل فيه أولئك الأقوام ودولهم فى الجاهلية الأولى من نعيم وترف ، وما كانوا يتمتعون به من قوة ومنعة . وفيه أيضاً تأنيب لعرب الجاهلية الأخيرة الذين كانوا يسيرون فى الأرض فيمرون بآثار منازل هؤلاء الأسلاف الأقدمين ، ويعلمون من أمرهم ما يعلمون ، ولكنهم مع ذلك لا يتعظون بمصيرهم ، ولا يعتبرون بما آلوا إليه . فالقرآن الكريم يصف سبأ بالحياة الزراعية المستقرة الناعمة ، وبضربهم فى الأرض آمنين ، وذلك قوله تعالى :

---

(١) H.G. Farmer, History of Arabian Music, Introduction 13

﴿ لقد كان لِسبَأٍ فى مَسْكَنِهم آيَةٌ : جَنَّتَانِ عن يَمينٍ وشِمَالٍ ، كُلُوا من رزق رَبِّكم واشكرُوا لَهُ ، بَلْدةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُور ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهمْ وَبَيْنَ القُرَى التى بَارَكْنَا فيها قرى ظاهِرَةً وقَدَّرْنا فيها السَّيْرَ ، سِيرُوا فيها لَيَالِيَ وأيَّاماً آمِنِين ﴾[1] .

فإذا ما عرض لذكر عرب الجاهلية الأخيرة وصفهم بأنهم لم يبلغوا معشار ما أوتيت الدول من قبلهم :

﴿ وَكَذَّبَ الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ وما بَلَغوا مِعْشارَ ما آتَيْنَاهُمْ ، فَكَذَّبُوا رُسُلِي ، فَكَيْفَ كانَ نَكِير ﴾[2] .

ويصف القرآن الكريم قوم عاد بفنّ العمارة وبالصناعة ، وذلك قوله تعالى :

﴿ أَتَبْنُون بِكل رِيعٍ آيةً تَعْبَثون ؟ وتَتَّخِذُون مَصَانِع لعَلَّكُمْ تَخْلُدُون ! وإذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جبَّارِين . فاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُون ، واتَّقُوا الذى أَمَدَّكُمْ بما تعْلَمُون ، أَمدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِين وَجنَّاتٍ وَعُيُون ﴾[3] .

ويصف ثمود بالحياة الزراعية المستقرة الخصبة وبفن العمارة كذلك ، وذلك قوله تعالى :

﴿ أَتُتْرَكُون فِى مَا هَا هُنَا آمِنِين ؟ فى جنَّاتٍ وَعُيُون ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيم ، وَتَنْحِتُون مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً فارِهِين ؟ ﴾[4] .

وأما إشارات القرآن الكريم إلى مرور عرب الجاهلية بديار أولئك الأقوام

---

(١) سورة سبأ ، آية ١٥ وآية ١٨
(٢) سورة سبأ ، آية ٤٥
(٣) سورة الشعراء ، آيات ١٢٨ — ١٣٤
(٤) سورة الشعراء ، آيات ١٤٦ — ١٤٩

من أسلافهم ومعرفتهم أخبارهم وأحوالهم فكثيرة ، منها :

﴿ وَعَادًا وثَمُودَ وقَدْ تَبيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهمْ فَصَدَّهُمْ عنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُستَبْصِرِين ﴾[١] .

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القَرْيَةِ التى أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْء ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بل كَانُوا لا يرْجُون نُشُورًا﴾[٢] .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ القُرُونِ يَمْشُونَ فى مَساكِنِهِمْ ؟ إنَّ فى ذٰلك لآياتٍ لأُولِى النُّهَى ﴾[٣] .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فى الأَرْضِ فَيَنْظرُوا كيف كان عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم؟ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهم قُوةً ، وَأَثَارُوا الأَرضَ وَعَمَرُوها أَكْثر مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ ، فَمَا كان اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، ولكنْ كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾[٤] .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فى الأَرض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِم ؟ كانوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وآثارًا فى الأَرضِ ، فأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ ومَا كَانَ لَهمْ مِن اللهِ مِنْ واقٍ ﴾ .

ولا ريب أن القرآن الكريم ليس كتاباً تاريخياً يقصد إلى ذكر الحوادث مفصلاً القول فى أجزائها، ولكنه يعرض للحادثة التاريخية ليُبين عن العظة والعبرة . وإنما عرضنا هذه الآيات لتدل على أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا يدركون طرفاً من أخبار أسلافهم ، ويعرفون شيئاً عن هذه الحضارات التليدة التى ورثوا

(١) سورة العنكبوت : ٣٨

(٢) سورة الفرقان : ٤٠

(٣) سورة طه : ١٢٨

(٤) سورة الروم : ٩

(٥) سورة غافر : ٢١

بعض بقاياها ورواسبها ؛ وذلك هو ما أشرنا إليه بالجدول الأول لحضارة العصر الجاهلى الأخير .

وأما الجدول الثانى — وهو ما سميناه بالحضارة الطريفة المقبوسة — فيكفينا منه ما كفانا فى سابقه : إشارات عامة تكشف لنا عن خطوطه الكبرى . وتتمثل هذه الحضارة فى ذلك الاتصال الوثيق الذى كان يربط عرب الجزيرة بالحضارات القائمة فى جوارها من فارسية ورومية ومصرية إلخ . . وربما كانت أهم سبل هذا الاتصال هى :

أولاً : هاتين الإمارتين العربيتين اللتين كانتا تتاخمان الحضارتين الكُبْريَين لذلك العهد ، واللتين كانتا أشبه ما تكونان بالثغور على الحدود ، وهما : المناذرة فى الحيرة ، والغساسنة فى الشام . فقد كان اتصال هاتين الدولتين بالفرس والروم من جانب ، وبالجزيرة العربية من الجانب الآخر ، اتصالاً وثيقاً . فكانتا لذلك قناتين كبيرتين انسرب منهما أثر هاتين الحضارتين إلى الجزيرة العربية .

ثانياً : هذه الطرق التجارية المنظمة التى كانت تتخلل صحراوات بلاد العرب ، وتلك المواثيق والعهود التى كانت تربط العرب الذين تمر تلك القوافل ببلادهم فيتعهدون بالمحافظة عليها لقاء جُعْل يدفع إليهم .

ثالثاً : هذه الأسواق والمواسم العربية التى كان العرب يقيمونها فى أطراف الجزيرة حيناً وفى قلبها حيناً آخر . فكان يؤمها العرب من مختلف بقاعهم وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية . وكان يؤمها كذلك بعض التجار الفرس والهنود والمصريين والرومان ، فكان كل أولئك يلتقون فى صعيد واحد ، يأخذون ويعطون ويتبادلون ما عندهم من متاع وعروض ، ومن آراء وأفكار ، ومن مظاهر الحضارات المختلفة[1] .

---

(١) كان كثير من تجار الأمم المحيطة ببلاد العرب — سواء فى ذلك الأمم القريبة والنائية — ينتقلون إلى جزيرة العرب ، فكان بعضهم يوافى أسواق العرب ويجتمعون فيها للتجارة ، كما كانت=

رابعاً : هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التى كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها وتطيل المقام ، بل تتخذ منها موطناً آخر تقضى فيه حياتها وتنشئ فيه ذريتها . فكانت هذه الجاليات مختلفة الأديان والأجناس والأهداف : فمنهم النصرانى واليهودى والمجوسى والوثنى ؛ ومنهم الفارسى والرومى والمصرى والهندى والحبشى ؛ ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيها دوراً للهو من غناء وشراب وبغاء ، ومنهم من جاءها فانشأ فيها مستعمرات زراعية فعمر الأرض وأثارها هناك ؛ ومنهم من جاءها لغير هذا وذاك كالبعثات التبشيرية الدينية التى انبثت فى أنحاء الجزيرة وجاست خلالها وانتشرت بين أهلها وأقامت البِيَع والصوامع والأديرة فى المدن والصحراء[١] .

خامساً : هذه الجماعات والأفراد من العرب أنفسهم الذين كانوا يفدون على فارس وبلاد الروم والحبشة ومصر للتجارة حيناً ، وللتعرض لعطاء الملوك والسادة حيناً آخر ، ولطلب العلم والهداية حيناً ثالثاً . أما التجار العرب فكانوا يضربون فى الأرض ضرباً بعيداً فيصلون إلى أقصى ما كان يعرف من عالمهم آنذاك[٢] .

= تفعل فارس حينما كانت توافى بسوق المشقر يقطعون البحر إليها ببياعاتها (ابن حبيب ، المحبر ص : ٢٦٣ – ٢٦٥) وكان يجتمع فى دبا تجار الهند والسند والصين وأهل المشرق والمغرب فيشترون بها بيوع العرب والبحر ثم يسيرون بجميع من فيها من تجار البحر والبر إلى الشحر ، شحر مهرة ، ويبيعونهم ما ينفق بها من الأدم والبز وسائر المرافق ، ويشترون بها الكندر والمر والصبر والدخن (أبو على المرزوق الأصفهانى ، الأزمنة والأمكنة ، ط . الهند ، الباب الأربعون) .

(١) عقد ابن حبيب النسابة (فى المحبر ٣٠٦ – ٣٠٨) فصلا ذكر فيه أبناء الحبشيات فى الجزيرة العربية ، غير ما نجده من أسماء الحبشيات مبثوثاً فى بطون المراجع الأخرى . وفى سيرة ابن هشام (ط بولاق ١ : ٥٧) ذكر لجالية حبشية من النصارى . وفى أسد الغابة أسماء كثير من الروم والروميات (١ : ٢١٢ ، ٤ : ٢٣٢ ، ٥ : ١٩٤ ، ٤٦٢ ، ٤٨٠) وفى سيرة ابن هشام (١ : ٦٥) ذكر لرجل قبطى نجار بمكة ، وفى (١ : ٦٢) ذكر ليهودى من الشام قدم على بنى قريظة وأقام عندهم ، وفى (١ : ١٤٧) ذكر لنصرانى من أهل نينوى ، وفى (٣ : ٤٥) ذكر لنبطى من نبط الشام قدم بالطعام يبيعه بالمدينة .

(٢) مثل : هاشم وكان متجره إلى الشام فهلك بغزة ، وعبد شمس وكان متجره إلى الحبشة ، والمطلب وكان متجره إلى اليمن ، ونوفل وكان متجره إلى العراق . وهم أصحاب الإيلاف من قريش (راجع لذلك المحبر لا بن حبيب ص ١٦٢ – ١٦٤ ، والسيرة ، بولاق ١ : ٤٧) .

وأما المتعرضون للعطاء فكانوا من الشعراء ورؤساء القبائل وأصحاب الرأى فيها ، يفدون إلى ملوك المناذرة أو الغساسنة أو بلاط كسرى أو بلاد مصر والحبشة ، فيقيمون هناك ما شاء لهم الله أن يقيموا يرون ما لم يروا فى بلادهم ، ويتزودون بالجديد الطريف من ألوان الحضارة المتباينة . وأما طالبو العلم والهداية فقد كانوا ممن استبدت بهم نزعات نفسية أو خواطر فكرية فكانوا يطلبون فيما نأى عن ديارهم ما يفيدهم علماً أو يكسبهم يقيناً واطمئناناً [١] .

٦

وبعد ، فإن حياة العرب فى الجاهلية — فيما بدا لنا — بعيدة كل البعد عما يتوهمه بعض الواهمين ، أو يقع فيه بعض المتسرعين الذين لا يتوقفون ولا يتثبتون ، فيذهبون إلى أن عرب الجاهلية لم يكونوا سوى قوم بدائيين ، يحيون حياة بدائية فى معزل عن غيرهم من أمم الأرض . ونحن لا نحب أن نغلو كما يغلون ، ونسرف على أنفسنا وعلى الحقيقة كما يسرفون ، ونذهب إلى أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا من الحضارة بمنزلة لا سبيل إلى تجاوزها ، ولا مزيد عليها لمستزيد ، وإنما نحب أن نشير إلى ما قررناه من أمر اتصال العرب بالحضارات المجاورة لهم أولاً ، ومن أمر حضاراتهم التليدة الموروثة ثانياً . ونزيد أن تليدهم هذا إنما كان حضارات متعاقبة موصولة ذات حلقات ، آخذ بعضها برقاب بعض ، بدأت منذ شاء الله لها أن تبدأ ، وانتهت قبيل الإسلام بزمن لا يعدو مائة ، أو خمسين ومائة ، من السنين . وكان من ذلك الحضارات المعينية والسبئية ، والعادية والثمودية ، والنبطية : التى ازدهرت فى شمال الحجاز وجنوب الشام أربعة قرون ، وزال سلطانها السياسى فى القرن الثانى بعد الميلاد ؛ ثم الحميرية التى استطالت حتى أشرفت على أوائل

---

(١) مثل : زيد بن عمرو بن نفيل الذى شك فى الأوثان ورحل يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم جال فى الشام (السيرة ١ : ٧٦ والأغانى — دار الكتب ٣ : ١٢٦ — ١٢٧) ومثل الحارث بن كلدة الثقفى الذى تعلم الطب وضرب العود بفارس واليمن (طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٧٤) .

القرن السادس للميلاد . فلم يكن إذن ما ذكرناه من هذه الحضارات أمراً جمح إليه الخيال ، وأثبته الوهم ، ولم يكن شيئاً قد تطاول عليه الزمن حتى عفّى عليه ، واندرست معالمه ، وانمحى أثره ، وخلّف من بعده أحقاباً طوالاً ، وقروناً ممتدة ، أرجعت هؤلاء العرب على أعقابهم ، وأعادتهم إلى النشأة الأولى والحياة البدائية . وما ينبغي لمتثبّت أن يغفل عن الفروق الكثيرة في المعالم الاجتماعية بين قوم لم يكن لهم في حياة الجماعة سابقة من حضارة أو علم ، أو كانت لهم ثم عفّى عليها الزمن ، فعادت كأن لم تكن . . فأولئك هم البدائيون حقاً ؛ وبين قوم قد كان لهم ما كان ثم تقلص ظله ، وتسرب الوهن إلى كيانه ؛ ولكنه لم يزل حياً في نفوسهم وضمائرهم ، قائماً في خيالهم وتصوّرهم ، مبثوثة معالمه في حيث كانوا يجوسون خلال ديارهم .

ولقد تكلفنا ما تكلفنا من القول ، وحشدنا له ما حشدنا من الأمثلة والشواهد في إيجاز شديد واقتضاب من القول ، لأننا إنما عُنينا — في هذا البحث التمهيدي — بتبيان الخطوط الرئيسية التي نستدل بها على أن عرب العصر الجاهلي ليس بمستنكر عليهم — بما كان لهم من حظ موروث في حضارات أصيلة سامقة ، وما كان لهم من سهم موفور في الاتصال بالحضارات المنتشرة لعهدهم — أن يحيوا ، على تفاوت بينهم ، حياة حضارية ، من ألوانها : معرفتهم بالكتابة معرفة سنفصل القول فيها فيما سيتلو من صفحات .

وإذا كنا لا نقصد بما قدمنا أن نُثبت — ابتداء ومن غير سند من نص أو رواية — انتشار الكتابة في الجاهلية ، فإننا نريد أن ننبه على سقوط حُجة من يسرع ابتداء — كذلك — إلى نفي أيّ نص أو رواية فيهما ما يدل على انتشار هذا اللون من الحضارة ، بحجة أن الجاهلية جاهلة ، وأن العرب كانوا قوماً بدائيين لم يعرفوا هذا الضرب من الحضارة . أما وقد أسقطنا الحجة بما قدمنا من القول فقد سقط بذلك الاحتجاجُ كله ، وأصبحنا نحن وهم على أرض سواء لا يغني فيها إلا دليل من نص ، أو برهان من رواية ؛ وذلك ما نسأل الله تعالى أن يعيننا على الوفاء به فيما سيلي من أبواب وفصول .